الفصل العاشر

تحدثنا عن الإنسان الكامل صاحب الأسماء الحسنى وظهور الحق على الحقيقة ، وقلنا إن هويته هوية الحق لما بلغ آفاق الغيب العليا ، وإليك هذه الرؤيا التي رأيتها :

رأيت شقيقة لي اسمها فاطمة خرجت من بين جمع كبير من الناس وفي يدها هوية ، وعلى وجهها آثار التعب وقالت : حصلت على هويتي من دائرة النفوس وبمشقة ، وكان الله في عون ليلى زوجة أخي رأفة إذا ما أرادت الحصول على هوية . والتعبير كما أشارت الرؤيا يدل على أن هوية الكثرة ذائبة في بحر الهوية الأكبر ، وكنا قد تحدثنا عن هذا البحر من قبل . فهوية الجزئي شعاع من هوية الكل ، ولذلك كان الجزئي بلا هوية لأن اقتطاع جزء من الهوية الوجودية مستحيل . فالكثرة ظهور الواحد عيناً والعيان لها ، هكذا صرح سلطان العارفين ، ولهذا قال ابن تيمية عدو الصوفية الأكبر إن ابن عربي أقرب الملاحدة (حسب اعتقاده) إلى أهل السنة لأنه قال إن الظاهر غير المظاهر .

ومع هذا فالإنسان الكامل يصل إلى درجة ترقي بحيث يصير وجهه وجه الله ، ويطابق قوس وجهه قوس وجه الله كما سبق ورأيت في رؤيا ، ومن هنا استمد العارف هوية حقانية من الهوية الشعشعانية فأدرج بذلك في الخالدين .

أما قول شقيقتي فاطمة ، وفاطمة رمز النفس المفطومة عن الشهوات أي

المترقية عن عالم الحس والحيوان ، أما قولها أن كان الله في عون ليلى زوجة أخيها رأفة إذا أرادت الحصول على هوية فهو تأكيد لما قلناه آنفاً إن هوية الجزء مفقودة ، إذ رأفة هو الرؤوف ، والرؤوف اسم من أسماء الله ، وأسماؤه تعالى له لا لسواه فلا وجود لغيره ، ومن لا وجود له لا هوية له ، لذلك فإن مظهر الاسم لا هوية له بالتالي وهذا ما أثبتته الرؤيا .

لقد استحق الإنسان الكامل بطاقة الهوية الخالدة بعد مروره صعوداً بمقامات العروج من أرض النفس إلى سماء المعقولات ومنها إلى مقام الملأ الأعلى ومنه إلى مقام قاب قوسين أو أدنى ولاحظ هنا تعبير (القوسين) . فالمرآة هنا صارت كلية ، كبرت حتى حوت كل المرايا ، ولهذا وقف الإنسان الكامل بإزاء الله بعد أن علمه أسماء المعقولات كلها ، فانتقل آدم ظهوراً من العقل بالقوة إلى العقل بالفعل إلى العقل المستفاد حتى بلغ رتبة العقل القدسي وهو الأخذ عن الله مباشرة فتحقق قوله سبحانه بأن صار العلم المنقوش في قلب آدم بالقوة علماً يقينياً خرج إلى القوة بالفعل .

وإليك هذه الرؤيا التي رأيتها عن العلم ومنزلته : رأيتني في مكتبة النوري ، ولاحظ الاسم ، فصعدت إلى علية ، ولاحظ معنى الصعود إلى علية ، وهناك قابلت صاحب المكتبة الذي اعطاني بطاقة هوية عليها صورتي ، ثم فتح درجاً وأخرج سجلاً وسجل فيه خلاصة عني . فالإنسان الكامل أتمّ إذن الكلمات التي كتبها سبحانه على آدم العاصي فأتمهن بدوره ، أي حفظها ووعاها ، أي استخرج ما فيها من مضامين . فالعارف لدى اقترابه من سن الأربعين أهُل لبلوغ صخرة اليقين ، تلك الصخرة التي بلغها موسى فكشف له عن حقيقة بدنه المتمثلة في الحوت والذي اتخذ سبيله في بحر الذات أو الجسم الكلي سرباً .

والرؤيا أعطتني هوية وصورة . فالبعث تم ههنا بعد موت العارف الإرادي لدى بلوغه صخرة اليقين . والسبيل إلى هذا البعث التحقق العلمي ورمز إليه بالمكتبة ، والمكتبة تحت ، وصاحبها فوق ، ولا سبيل إلى الخروج

بالحقيقة من بطون الكتب إلا بمشيئة منه سبحانه .

والعلم يفترض الجهاد ، ولا علم بلا جهاد ، لأن الجهاد وحده ضرورة تفرضها طبيعة الأسماء الإلهية . فالتضاد هو الذي أوجب الجهاد ، والجهاد أصغر وأكبر ، أما الأصغر فهو الجهاد في سبيل الله وقد كان الرسول بطله مع الصحابة والمسلمين الأوائل . ولما عاد الرسول والمسلمون من غزوة قالوا فرغنا من الجهاد ، قال الرسول : الآن فرغتم من الجهاد الأصغر ، قالوا وما الجهاد الأكبر يارسول الله قال جهاد النفس .

والنفس أمارة بالسوء ، ولها شيطانها وخاطرها ، والشيطان من شَطن وهو البعد ، فالشيطان هو البعد والبعد حجاب . والشيطان ملك من الملائكة قضي عليه بأن يمثل دور الحاجب للهوية الإلهية . وترى في قصة خلق آدم كيف أغرى الشيطان آدم وزوجه بالاقتراب من الشجرة المحرمة ، وسبق أن قلنا إن الشجرة هي شجرة المعرفة . وقد يأمر الله بشيء ويريد خلافه ، فأمره سبحانه بين الإرادة الكونية والإرادة الدينية ، والإرادة الكونية المعرفة والإرادة الدينية السبيل إلى هذه المعرفة . فالقضاء الإلهي أوجب الاقتراب من شجرة المعرفة والأكل منها ليرى آدم وزوجه السوأة ، والسوأة حقيقة الفعل ، والفعل صفة ، والصفة اسم ، ومن الأسماء الأسماء المزدوجة وهي الأسماء المتضادة . فالأمر سلسلة ، ولا بد لأبن آدم من اجتياز وادي جهنم ، وجهنم جهنام وهي بئر بعيدة القرار . فأنت ترى أن البعد سبب للقرب أي هو بداية العودة إلى القرب . فالقرب بلا بعد ليس قرباً ، ولم يُسّم قرباً إلا بعد وجود البعد . فالطريق دورة ، والدورة في النفس ، والنفس كلية وجزئية . فعلى المستوى الكلي يظهر الجزئي ويفعل الجزئي . والجهاد الخارجي هو جهاد داخلي للنفس الكلية . فالنفس الجزئية خاضت حرب جهاد النفوس الجزئية طوعاً أو كرهاً . فالمؤمنون يساقون إلى الجنة سوقاً وبالسلاسل وما يعلمون . أما جهاد النفس الجزئية نفسها فذلك ما سماه الرسول الجهاد الأكبر . ففي النفس أسماء ، وكل كريم له شطر من نفسه يمثل الاسم المضاد .

ولقد توقف الشيخ بغتة عن الكلام وفكر لحظات ثم سألني :

ـ قل لي هل سبق أن عشت شيئاً مما قلت ؟

قلت متعجباً :

ـ أي شيء يا سيدي ؟

ـ أعني أنك كنت في موقف يقتضي أن تكون كريماً فشعرت أنك تعيش صراعاً ، صراعاً في نفسك بين أن تعطي أو لا تعطي ؟

أجبت :

ـ هذا يقع لي دائماً ، (وتابعت غاضاً طرفي) حتى أنني لأضيق ذرعاً كثيراً بهذا الموقف .

ـ وما تكون النتيجة ؟

قلت مبتسماً :

ـ طبعاً إنني أعطي .

ـ ولا يمكنك ألا تعطي .

هززت رأسي أن لا .

ـ ولم يسبق لك أن عشت موقفاً لم تعط فيه .

قلبت شفتي وقلت :

ـ أحياناً كان يحدث هذا .

ـ وتشعر من ثم بالندم .

ـ طبعاً .

ـ يعذبك ضميرك عذاباً أليماً .

ـ أجل .

ـ تتعذب إلى درجة أنك تؤثر الموت على أن تقاسي تبكيت الضمير هذا

تنهدت وقلت :

ـ يعلم الله أنني كنت أعيش ذلك .

هز رأسه وأعلن :

ـ سبحان من أخرجك من الظلمات إلى النور بفضله . ألم أقل لك إن المؤمنين يساقون إلى الجنة سوقاً وبالسلاسل ولا يعلمون ؟

قلت :

ـ سيدي أنت تثير قضية هامة من قضايا التصوف .

أسرع القول :

ـ الجبر والاختيار .

ـ أجل .

ـ ـ وما يستتبع من أمر الثواب والعقاب ؟

ـ أي نعم ياسيدي . الناقدون حملوا على الصوفية في هذا المجال حملة شعواء . اتهموكم بأنكم قوضتم صرحاً من صروح الدين إن لم تكونوا قد هدمتم الدين كله . فما الدين من غير ثواب ولا عقاب ، أي بصراحة . . بلا جنة ولا نار ؟

جعل يتأملني . كان علي أن أبرىء ذمتي واعترف إلى الشيخ بما كنت قد قرأته من نقد للصوفية ، كما أنه كان عليه هو أن يتولى الدفاع عن موقف الصوفية الذين لطالما تعرضوا لحملات نقد شديدة .

سألني

ـ هل قرأت لسلطان العارفين ما قاله في هذا الصدد ؟

ـ أجل ، لقد حل المشكلة بأن جعل الناس جميعاً في الجنة .

انفجر ضاحكاً . جعل يهز رأسه وهو يضحك ، يهزه ذات اليمين وذات الشمال . لقد أعجبه تعبيري حتى جعل يردده : جعلهم جميعاً في الجنة . هذا جميل ، والله هذا جميل .

قلت محكماً حصاره :

ـ ولكن في هذا خروجاً على ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله . تبدد ضحكه ، تبدد بسرعة ليحل محله فجأة عبوس ، وقال :

ـ خروج ؟ أتسمي هذا خروجاً ؟

ـ وماذا أسميه إذن ؟

رفع يده وأهوى بقبضته على الطاولة بقوة جعلت ما عليها يقفز مصدراً ضجة وهو يتابع بصوت مخيف :

ـ قل لي ، هل تؤثر وأنت الإنسان ذو القلب العاطفي أن يعذب الله الناس بالنار عذاباً نكراً . أن تضربهم ملائكة جهنم بسلاسل من نار وأن يسقوا شراباً من نار وأن يطعموا طعاماً من غسلين أم أن يعفو الله عن أهل النار ؟

قلت :

ـ ليست المسألة مسألة تقبل أن لا . فنحن أمام قضية أكبر وهي العدل . لقد تحدثت قبل قليل عن الجهاد ، الجهاد الأصغر والأكبر ، ولقد لاقى المسلمون الأوائل في الجهاد الأصغر وسقط منهم من سقط وتعذب من عُذب ، فهل نجعل في النهاية المجرمين كالمؤمنين ؟

قال :

ـ يا بني نحن ما زلنا نتحرك داخل دائرة الأسماء ، والوجود كله وجود الأسماء ، وغاية الوجود متعلقة بأن يُفض مكنون الأسماء ، وقلنا إن الجهاد هو السبيل الوحيد لكي يفض هذا المكنون ، ولهذا جعلنا الجهاد مقدمة العلم ، وقلنا إن هناك جهاداً أصغر وهو مجاهدة العالم الخارجي ، وجهاداً أكبر وهو جهاد النفس . وإذا ما نظرنا من خلال النفس الكلية ومنظارها التحم الظاهر بالباطن

فما بقي للجهاد نوعان . فالتضاد شرط لإخراج مضمون الأسماء ، ومن غير التضاد لا خروج لهذا المضمون وبالتالي تبقى الأسماء مطوية كطي السجل للكتب . . والأسماء المطوية غير موجودة ، فما قيمة بذرة لم تبذر في التراب ؟ والأمر بعضه متعلق ببعضه الآخر . اسم الكريم يقتضي فضّه وجود تناقض نفسي في نفس تعّين اسم الكريم ، كما يقتضي وجود اسم تضاد الكريم ليقوم الكريم ، فما قيمة الذهب إن كانت المعادن كلها من جنسه ؟ واسم الشجاع يقتضي وجود اسم الجبان ، وتقوّم الشجاعة في المواقف التي تتطلب شجاعة بالفعل . فشق البذرة أمر متعلق بالمواقف . ألست ترى معي في النهاية حقيقة أن الأمر الكلي هو بين ظاهر وباطن ، داخل وخارج ، بين اسم الشجاع واسم الجبان؟ ثم إننا رأينا أن التعين ليس له وجود حقيقي ، وأن الأسماء ليس لها وجود أصيل ، وأن الأمر أساسه النور ومنتهاه النور ، فنحن في دائرة النور المتعين . . فأين وجود الشجاع داخل هذا النور وأين وجود الجبان ؟ ألا تذكر الوجه والمرايا ؟ والمرآة تعكس ما أمامها ، وليس ما أمامها إلا وجهه سبحانه . فالمرايا إضافات ، ووجودها اعتباري لا ثبوتي . والعين هي لله وحده ، فلا وجود لموجود من غير الوجود الأصيل . بقي أن نقول لمرآة أنت عكست اسم الكريم ، ونقول لمرآة أخرى أنتِ عكست اسم الشجاع ، ونقول لمرآة ثالثة أنتِ عكست اسم المُذل . ونظل هكذا إلى أن نفرغ من أمر المرايا ، وما المرايا موجودة ، ولا الأسماء موجودة ، ونعود إلى الحق سبحانه فنسأله الخروج من هذا التيه الذي ضاع فيه عبدة وثن العجل أربعين عاماً في الصحراء فيقول من أحصى أسمائي دخل الجنة ، أي أحصى معقولاته ومقولاته وكلياته ، ومن دخل الجنة أهُلَّ للعروج إلى مقام الذات الأعلى .

فصاحب المرآة ليس له إلا مرآته وما إنعكس في مرآته . هذا يسمونه في علم التصوف طبيعة الاستعداد والميل . أنت نفسك اعترفت بأنك كنت كريماً بالفطرة وبالطبع والميل . فأي فضل لك إذن غير الكسب ، والفطرة له والطبيعة من خلقه والميل من ميله إلى جهة اليمين وجهة الشمال .

وسلطان العارفين أدخل الجميع في الجنة بناء على ما تقدم من وصف

للمرايا . المرآة تعكس الاسم الذي أمامها فهي موصوف لصفة ومعلول لعلة ، وليس ما فيها إلا ما جاء من إشعاع الأسماء . ولتطابق الصفة مع الموصوف كان الجميع في سلام آمنين . فأنت انزعجت لأنك لم تمثل اسمه الكريم ولم تشعر بالراحة إلا حين لبيت نداء طبيعتك ، ومثلُك من مثلَّ الاسم المضاد فهو ينزعج إن فعل شيئاً ليس من طبيعته ، فالداخل إلى جيبه مفقود والخارج مولود كما يقال ، فهو في جنة صفته رغم أنه في النار قياساً إلى صفة الكرم . والجبان يرى في الإقدام تهوراً وجنوناً ، ففي الشجاعة ناره لو أراد الإقدام . وهكذا ترى أن الأمر كما قال الإمام الغزالي (كلٌّ إلى طبعه راجع وصائر) ومن هنا نفهم موقف سلطان العارفين الذي رد العذاب إلى العذوبة وقال يسمى عذاباً من عذوبته . فمن كانت طبيعته نارية وافق النار فما ثم عذاب . وكيف يعذب الله جزءاً من كل ، ولا كل إلا بالجزء ، ولا كل إلا بالأسماء ، ولا أسماء إلا بالتعينات ولا تعينات إلا بالتضاد ؟ . . .

قلت متفكراً :

ـ على هذا الأساس لا خلاص إذن يا سيدي من الشر .

أجاب :

ـ الخلاص بالمعرفة . ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ ، وقوله ﴿ أدخلوها بسلام آمنين ﴾ ، وقوله ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ . عندما يكشف لك سر الأسماء تجد السلام هناك ، تجد أن ما كان شراً هو الوجه الآخر للخير . قل لي ما صناعتك أنت ؟

ـ أديب .

ـ حسناً أيها الأديب ، هل أنت أديب من غير وجود الشر ؟

ـ كيف ؟

ـ أنت تكتب قصصاً . .

ـ أجل .

ـ وهدفك أن تضرب الأمثال للناس لعلهم يتفكرون .

ـ هذا صحيح .

ـ حسناً ، هل باستطاعتك أن تمارس عملك لولا وجود عنصر الشر في أدبك ؟

فكرت . . فكرت بسرعة ثم قلبت شفتي وأجبت :

ـ لا أدري ، أنا لم أحاول .

ـ ولن يكون بوسعك أن تحاول . بناؤك كله لا يقوم إلا إذا كان عنصر الشر موجوداً . خذ مثلاً على هذا أي فيلم يعرض على شاشة التليفزيون ، وحاول . . أقول حاول أن تتخيل أنك رأيت على الشاشة الصغيرة فيلماً أو مسلسلاً دون وجود عنصر الشر فيه . أذكر ذات مرة أنني رأيت فيلماً ، ولقد انقضى نصف ساعة من الوقت وما زالت الأحداث تمر بسلام . هل تصدق ، هل تصدق أنني أنا الشيخ الصوفي قد وجدتني أضيق ذرعاً وأتساءل : وبعد فمتى تبدأ الأحداث ؟ ولاحظ هذا التعبير ،متى تبدأ الأحداث . . وكأن الحدث لا يبدأ إلا بظهور عنصر الشر ، فعندما يظهر يبدأ الحدث ، ويظهر التحدي ، ومن التحدي يبدأ البناء ينمو . فالبطل لا يكون بطلاً إن لم يكن هناك من يواجهه ليظهر ما فيه من بطولة . تصور بطلاً بلا بطولة كيف يكون بطلاً ، ولِمَ يسمى بطلاً . وتصور أديباً بلا عنصر الشر كيف يصبح أديباً ؟ يا بني ما خلق الله الخير والشر إلا كما خلق الظلام ليدل على النور ، أو ليتيح للنور الفرصة للظهور وهذا ما يسمى في الدين الإرادة الكونية .

ـ ولكن تبقى هناك الإرادة الدينية .

ـ وما لها الإرادة الدينية ؟

ـ إننا حين نكشف عن الإرادة الكونية نلغي دور الإرادة الدينية .

ـ ومن قال لك هذا ؟

ـ هل قرأت كتاب نقد الفكر الديني للمؤلف جلال صادق العظم .

ـ أجل .

ـ لقد كشف المؤلف عن طريق كتب الصوفية وأقوالهم الدور الإيجابي الذي يلعبه الشر إن صح القول. أتى بأقوال للصوفية تفيد أن الشيطان مجبور على الإغواء ، وكانت النتيجة أن الشيطان لم يعد شيطاناً ، ولم يبق ثم مبرر لوجود جنة ولا نار ولا مجال من ثم لثواب أو عقاب ، وإذا وصلنا إلى نتيجة كهذه نسفنا الدين .

ـ ومن أخبرك بأن الدين قد نسف ؟

ـ المؤلف نفسه اعتمد هذا النقد لنسف الدين .

ـ وهل نسف الدين ؟

باغتني سؤاله فارتبكت . . في حين مضى هو متسائلاً :

ـ ما كانت نتيجة صدور كتاب نقد الفكر الديني ؟

قلت مبتسماً :

ـ ردود فعل شديدة من قبل المفكرين المؤمنين .

جعل يهز رأسه وهو يُحد النظر إلي ثم قال :

ـ أرأيت ما كان رد الفعل ؟ بل أن الدكتور العظم قد ساعد الدينين على غير علم منه . وابن تيمية الذي كان عدو ابن عربي الأول كان أكبر داعية له على الحقيقة ، فكلما أمعن في تجريحه والطعن عليه كلما دفع الناس دفعاً إلى قراءة أعمال سلطان العارفين . إن ابن عربي مدين بشهرته العريضة إلى شخص واحد بالذات هو إبن تيمية .

قلت :

ـ هذا لم يخطر لي ببال .

ـ ولكنه صحيح .

ـ ربما . .

أخذ نفساً عميقاً وهو يغمض عينيه متأثراً ثم فتحهما وتابع قائلاً بصوت عميق :

ـ الدين فطرة يا بني ، والفطرة أعمق جذوراً من الفكر ، والفكر تابع للفطرة . أنت قرأت ولا شك ما أثير ضد الدين من تهم وشبهات وعلى مدى التاريخ كم تعرضت الأديان للهجوم من قبل الملحدين ، ومع هذا فهل تم القضاء على الدين ؟ ! . . .